



ثمة من يسأل أيّ مصيرٍ مجهولٍ يُجْهَز لمحافظة إدلب السورية، بعد الاستهداف الممنهج لسبعة مشافي ميدانية، وخروجها عن الخدمة، من الطائرات الروسية، في استحضار للذاكرة عما جرى في مدينة حلب أواخر العام المنصرم.

ما حدث من استباحة لحلب بشرعنة دولية، وتواطؤ عالمي وتخاذل عربي، يضعنااليوم بشكل مباشر أمام مخاوف تكرار المصير نفسه، بالأيدي الروسية الإيرانية الأسدية نفسها، وإلا ما تفسير المعارك البربرية المفتوحة من ثلاثة محاور، في ريفي حماه الشمالي وحلب الغربي وريف جسر الشغور، مع غطاء روسي للمليشيات وقصف مكثف للمناطق السنية، بُغية تفريغها من ساكنيها، وعزلها عن نقاط التماس مع مناطق معسكر الاحتلال.

كثيرة كانت التحذيرات التي أطلقها ديمستورا قُبيل تنفيذ واقعة حلب، حتى الروسي هدد ونفذ، بعدهما أغرق العالم بأكذوبة الممرات الإنسانية، وحماية المدنيين، والنتيجة كانت تهيئة الظروف الموضوعية للانقضاض على المدينة.

جاء احتدام المشهد العسكري في إدلب عقب مجررة الكيماوي في خان شيخون في الرابع من إبريل/ نيسان الحالي، في خطوة تشير إلى تحقيق السيطرة على خان شيخون، وطمسم عالم الجريمة المتورطة بها إيران وروسيا بتنفيذ أسدى. استمرار الخلاف بين المعسكر الغربي مع المحور الروسي، بشأن تشكيل لجنة تحقيق دولية، وإرسالها إلى خان شيخون، تتخلله مناورات روسية، أساسها المماطلة واستثمار الوقت، لتحقيق مكاسب عسكرية على الأرض، تتعدي، في جوهرها، وبعد من موضوع التحقيق في مرتكبي المجازرة.

تفيد المعلومات، حسب قادة عسكريين، بأنّ روسيا تسعى إلى تأمين العمق الاستراتيجي لها في مثلث معسكر جورين، كنسبا، ربيعة، وهو المثلث الأهم لروسيا، لعمق مصالحها في الساحل السوري. وما الاستماتة الروسية في كسر خطوط الدفاع في معارك حماه، طيبة الإمام وكفر زيتا وحلفانيا إلا بداية لتطبيق سياسية فرز المناطق وعزل ريف حماه عن ريف

إدلب، تحسباً لأي تسوية سياسية قادمة، فضمان المصالح بالمنطق الروسي أهم بكثير من أي حديث عن مصير الأسد، الذي على ما يبدو سيكون تحصيل حاصل، لحظة نضوج التفاهمات الدولية المبنية في سوريا على أساس محاصصة مناطق النفوذ.

بالعودة إلى إدلب، ما يُبيّن للمدينة غير واضح حتى كتابة هذا السطور، فيما الأهالي أنفسهم يتوقعون إبادة جماعية لهم، لا قدر الله؛ وما شعورهم هذا إلا بسبب اعتقادهم أنَّ الفصائل ستبقى عاجزةً عن نبذ الخلافات، والتوحد تحت راية واحدة لمواجهة الزحف لمليشيات النظام، ويقولون حلب خير مثال.

وتوتر الأسئلة نفسها للفصائل عن المصير الغيبي لهم، وما المانع اليوم من الاستفادة من تجربة حلب، حتى لا تُعاد ثانية، أليست الحاجة والضرورة تقتضي الكفَّ عن تقاذف الاتهامات، وتبادلها بين فصائل إسلامية ومعدلة، في الوقت الذي بات العالم ينظر إلى إدلب أنها بئر لتجمّع الإرهاب.

تفعيل الوعي الجمعي عند كبرى الفصائل والإحساس بمصير الملايين من الناس هو الأولوية التي يجب أن لا يتم تجاهلها عند الفصائل الإسلامية، وخصوصاً هيئة تحرير الشام ، فلا هم قادرون على حماية المدنيين من الطيران، ولا هم فاتحون معارك جوهريه تؤلم النظام، ولا هم مقتنعون بدولة مدنية، تُلقي مطالب الشعب، المتعطش بعد كل ما قدّم من تضحيات بتحقيق دولة مدنية متعددة الأعراف في مجتمع يكون شعاره ممارسة الحرية بسلام.

وحتى لا تكون مثاليين، قد يسأل مطلع: أمّا محور الشر هذا، المدجج بأكبر ترسانة عسكرية جوية بريّة في سوريا، وميول كامل المعادلة لصالح النظام بفعل الحلفاء، والتزام معظم الفصائل لأوامر الخارج، كيف يمكن تجنب المحرقة المقبلة في إدلب، إذا ما سلمنا بالخيارات الروسي الماضي في الجسم العسكري؟

ربما يمكن الاستفادة من التجارب التاريخية، فلدينا تجارب عديدة حققت المستحيل بفعل الإرادة والتصميم، لعل أبرزها استراتيجيات الحروب الشعبية في الثورات، وفي الثورة الفيتنامية في ستينيات القرن الماضي، تمثلت استراتيجية النضال المسلح للثورة الفيتنامية نموذجاً قديماً حاضراً، حققت نتائج أسهمت في تحقيق حرية الشعب الفيتنامي.

أثبتت الثورة السورية، عبر سنينها الماضية، أنها ليست كمثلها ثورة على مرّ التاريخ، وهي فعلاً تختلف بطبيعتها عن كل الثورات في التاريخ، حتى أننا لم نشهد تاماً عالمياً على هذه الثورة، كما نراه اليوم من دول غربية وعربية، تصفي حساباتها على حساب الدم السوري.

أمّا مهانة العيش، لم يعد للسوريين ما يخسرون، حتى يلتزموا الصمت على ما يُحاك لمدينة إدلب، وعلى قدر المسؤولية والأمانة، يكون العمل عند شرفاء الأمة، ومن ناصرهم، لقلب الطاولة على النظام، لنيل الحرية لأنّا، من أجل مستقبل يسوده السلام والأمان.

العربي الجديد

المصادر: